

من الأدب الأردني المعاصر

الخطور

للأديب منشا ديا

ولعله لهذا السبب، ورغم وجود تلفاز في بيته، لم يشاهد أي فيلم إنجليزي.. لا... لا ولم يشاهد حتى أي فيلم بالاردية أو البنجابية، فلو أنه شاهد برامج التلفاز لما تكونت لديه هذه الفكرة البالية القديمة عن الخمر وشاربيها!!!

كانت هناك أنماط عديدة من الناس، يجلسون في مقاعد المسرح المتهالكة بينما كانت المقاعد الخالية تغطيها الأتربة، فقاموا بنفضها بمناديلهم، ثم جلسوا بعد أن أجلسوه وسطهم حتى لا يتمكن من الفرار.

كان الدخان ينبعث من كل ناحية داخل المسرح، ولعله لم يكن هناك من لا يدخن السجائر، وبينما امتلأ جو المسرح بالدخان والغبار والأتربة، كاد دماغه أن ينفجر من رائحة دخان السجائر والحشيش، وبدت أمامه خشبة المسرح خالية من ملامح الجمال، بينما كان العازفون يجلسون لا يحركون ساكنًا، والمطربات الشهيرات يصرخن بأغانيهن من خلال أجهزة التسجيل الضخمة صراخًا يمزق طبلة الأذن، وبدأ الأمر وكان معجون الموسيقى قد طفح في «مصرف» حمل مجاري المدينة، بكل ما فيها من قاذورات.

كان رأسه يدور بينما شعور الخجل يعتريه، والارتباك يحتويه كان يخامرهم إحساس بأن أباه سيأتيه من الخلف، ويقبض على رقبتة، ويسحبه قائلاً:

– هيا! سوف أسمعك الأغاني، وسوف أجعلك ترقص رقص الغواني.

وكان يزيد من شعوره بالخجل فكرة راودته، ماذا لو ظهر من بين الجمهور من يعرفه، فيذهب ويخبر أهله؟! قبل أن يأتي إلى المدينة الجامعية كان يعتقد بنفسه كثيراً، ويرى أنه ذو شأن كبير، ربما لأنه كان يحصل على درجات عالية في الامتحانات، لكنه جاء إلى الكلية، وإلى السكن الجامعي، فبدؤوا ينظرون إليه على أنه من أصحاب الأفكار الرجعية، وأنه متخلف ودقيانوسي، فالأمر في الكلية ليس مجرد مذاكرة فقط، فهناك أهمية للنشاطات الأخرى غير المنهجية، بينما ينظر البعض لأولئك الذين يقرؤون الكتب،

أخذوه بالقوة إلى الحفل. وحتى يجعلوه كقطعة عجيب في أيديهم، قرروا أن يشربوه الخمر، وأن يجعلوه يدخن الحشيش، ومن ثم يأخذونه ليشاهد استعراض الرقص على المسرح، حتى يزيلوا عنه ما يعتريه دائماً من خجل وحياء.

حين وصل إلى الحفل كان رأسه دور، كان على يقين من أنه سوف يسقط في ترعة أو يقع في بركة، وأن الكلاب سوف تلعق وجهه، فقد ظل يسمع منذ طفولته أن الإنسان لا يظل إنساناً إذا ما شرب الخمر، وأنه يصير حيواناً، فالخمر تجعل الإنسان مفلساً ذليلاً وتفقدته النخوة والشهامة، وتصيب عقله بالتبليد، وتمزق كبده.

كان يشعر بعقله وقد تبليد، وبكبده تتمزق، وبدأ كأنه ابتلع جمرات متأججة بالنار، وكان على يقين من أنه لو لم يتماسك لهوى إلى قاع ترعة أو بركة، فأحس بالقيء، وصار يتقيأ مرة تلو الأخرى، وكان دخوله دورة المياه ذنباً وإثماً، وتخيل الكلاب تلعق وجهه، فقد كانت فكرته عن الخمر وشاربيها فكرة قديمة بالية إلى حد كبير.



ترجمة د. سمير عبد الحميد إبراهيم
مصر



عندما قدمت فتاة
شابة إلى المسرح
وبدأت في
الرقص.. كانت
تشبه زبيدة في
ملامحها.

يا ترى!! ألا تكون
هذه زبيدة بشحمها
ولحمها؟! بدأ قلبه يدق
بسرعة، بدأ ينظر ناحيتها،
يحدق فيها، فاكشف أنها تغني
أغنية ما، كان بعض الجالسين
في المقاعد الأمامية
يغمزون لها، ويلمزون في
الوقت الذي انفجرت فيه
ضاحكة وهي ترقص.

فرع، وانتفض، لم يكن قد
رأى زبيدة منذ ثلاث
سنوات تقريبا، ربما
تغيرت قليلا، تذكر
ضحكاتها، فكثيرا ما
كانت تأتي إلى هنا
قبل أن ينتقل والدها
للعمل في مدينة
بشاور، كانت
زبيدة أخته
الصغرى، كانت
تضحك ضحكات

قصيرة حلوة، تصدر عنها
بصوت متقطع، لأنها كانت
تخجل من الضحك، وكان هو

أيضا يخجل منها، لكنه كان يقف مختفيا في الشرفات، وخلف
الأبواب، ومن وراء الستائر ليستمع إلى تلك الضحكات
الحلوة التي تصدر عنها في تتابع مثير..

كم كان يرغب دائما في أن يستمع إلى ضحكة حلوة
طويلة تظل كامنة في ذاكرته، يسترجعها، يتمتع بها في
وحده، طوال حياته.

وأثناء عرض الرقص الثنائي انفرط عقد شعرها، فانساب
شعرها على كتفيها، وغطى وجهها، بطريقة مثيرة، فتوقف
قلبه، وأصيب بصدمة، وبدأت مئات الإبر تخزه في جسمه،
فقد تذكر فجأة شعر «زبيدة» الجميل، لم يستطع أن يصل إلى
قرار، فيما إذا كان جمال زبيدة نتيجة لصوت ضحكاتها
الحلوة، أو نتيجة لشعرها الكثيف الطويل الأسود بلون

ويحصلون على درجات عالية، ويواظبون على إقامة الصلاة
على أنهم أصحاب أفكار غير حضارية!!

فالطلاب هنا لديهم هوايات واهتمامات متعددة
ومتنوعة، فالكثير منهم يلعب كرة القدم والهوكي
والكريكت، لكنه لم يكن يهتم بالألعاب.. فقد لعب مرة الكرة
الطائرة، فسقط عدة مرات على وجهه، وأصيب بجروح، كما
أنه يرى الهوكي لعبة غير محترمة على الإطلاق، فالطلاب
يتعمدون كثيرا تحطيم أرجل الفريق الآخر، وفي ملعب
الكريكت يصيبه الغثيان من جراء الوقوف والمشاهدة
المملة، وهو يخاف لعبة البولو فقد تنخلع ذراعه، وحتى
الاشتراك في فريق عزف الموسيقى يختلف مع طبيعته فافراد
هذا الفريق - في رأيه - مثل «مشخصاتية» الشوارع.

يرى من داخله أنه لا يوجد في قلبه أمنية ما أو رغبة من
أي نوع، لكنه كان دائما يرى أحلاما جميلة، وكان عاشقا لكل
ما هو حسن وجميل، وكان يأنس كثيرا للرسم، والشعر
والأغاني العذبة، كانت الأشجار بأغصانها، وفروعها المورقة
والسما بسحابها وقمرها ونجومها، والفراشات بين الزهور
والكتب كل هذه الأشياء كانت تجد لها مكانا في قلبه،
فيعشقها ويحبها.

في الصلاة المغطاة حين كان الطلاب يلعبون الورق
(الكوتشينة) أو الشطرنج أو حتى «كرة الطاولة» كان هو
بدوره ينشغل بقراءة افتتاحيات الصحف والأعمدة اليومية
الثابتة، ويستمتع إلى الأناشيد الجميلة من المذيع، ويتمنى
من صميم قلبه أن يكتب مثل هذه الأناشيد، ويدندن بها،
كانت في قلبه آمنيات أخرى كثيرة، لكنه لم يعلن عنها أبدا،
ولم يفصح عن أي رغبة من رغباته، كان يشترك في
النشاطات داخل الصالة المغطاة ولعله لم يكن يستطيع أن
يفعل شيئا سوى القراءة والكتابة، وكان إذا لعب الشطرنج
ينهزم، ورغم أنه حاول آلاف المرات لم يتمكن من لعب الورق
«الكوتشينة»، فقد كان يستغرق وقتا طويلا في البحث عن
الأوراق المناسبة بينما يتمكن زملاؤه من سلبه جميع
الأوراق.

ظهر على خشبة المسرح رجل هزيل، أمسك بمكبر
الصوت وأعلن:

- حان الآن وقت عرض الرقص الثنائي، هيا يا سادة!
روبية واحدة من أجل هذا العرض.

ولم يكد الرجل الهزيل يبتعد عن مكبر الصوت حتى
بدأت الموسيقى تصخب من جديد، تذكر أنه كان يسمع
موسيقى هذه الأغنية من المذيع في صالة الكلية المغطاة، إلا
أن هذه الأغاني التي كان يتلذذ بسماعها صارت تحز فيه
كالمنشار بينما الأغاني التي كان يتذكر كلماتها صارت غير
مفهومة له على الإطلاق.

بدأ الناس في التصفيق والصفيق والخبط بالكراسي،

الفحم... قاله وحده يعلم كيف يمكنها حمل عبء هذا الشعر الكثيف المكون من ملايين الملايين من الشعيرات السوداء الطويلة.

وتذكر أنه ذات ليلة كان يستعد لاختبار الجغرافيا، فتذكر شعر زبيدة فظل طوال الليل في حيص بيص، يخلط ما بين القطب الشمالي والقطب الجنوبي على الكرة الأرضية، وهو يحاول أن يضم هذا الشعر في خياله، ويعدده شعرة شعرة.. في تلك الأيام كان يختار من دواوين الشعراء تلك الأبيات التي تتحدث عن الشعر والزلف والذوائب. كانت زبيدة لا تزال ترقص.

أخذ رأسه يدور ويدور، وبدأت الأشياء القريبة منه تتباعد عنه، بينما الأشياء البعيدة عنه بدأت تقترب منه، كان يشعر بالنوم، وكان يريد بالفعل أن ينام، لكنه هب من نومه فجأة مذعورا، واعتدل يريد أن ينهض، لكنهم أمسكوا به وأقعدوه.. كان في حيرة شديدة أخذ يفرك عينيه وظل ينظر ناحية المسرح.

وبعد «زبيدة» ظهرت «نورا» ابنة خاله ترقص على خشبة المسرح.

ذهب في السنة الماضية إلى قريتها أثناء العطلة، لم يكن يعلم أن خاله قد اتفق على تزويجها، كل ما كان يعرفه فقط أن جسم «نورا» الغض الجميل الفارع كغصن البان يرسل أشعة مغناطيسية تظل تجذبه إليها بعد أن يبتعد عنها آلاف الأميال.

كانت «نورا» تنحني على حافة خشبة المسرح تتلقى من المتفرجين «النقوطة» أوراها مالية، بينما كان الرجل الهزيل يصرخ بأسماء من يقدمون لها «النقوطة» وكان ارتفاع صرخاته على قدر المبلغ الذي يقدم لها، وفجأة أمسك أحدهم برسخ «نورا».

تفجر الدم في عروقه، رغب لو وثب فوق هذه الجماهير، وطار وحطم أسنان ذلك الرجل الذي أمسك برسخها.. ظل ينتفض، ثم نهض من مقعده، لكنهم أجلسوه، وكبلوه في المقعد مرة أخرى.

وبعد أن شاهد «نورا» ترقص أمام الجمهور، استسلم تماما، وتدلى رأسه فوق صدره، وحين رفع رأسه رآها ترقص وتتلوى بشكل بذيء، فغضب غضبا شديدا، وأخذ يضغط على أنيابه، ويعض على شفتيه، ثم بدأ يوجه لكلماته لمن حوله، محاولا النهوض من مقعده، وصرخ بصوت عال:

«نورا» «نورا».

فتلفت الناس إليه وخاطبوه:

«هذه ليست «نورا» هذه «بروين أخت».

«مجنون».

«أحمق».

«عاشق».

«سكير».

«مسطول» مخبول.

سقطت عليه هذه الكلمات كالأحجار، أصابته بجروح

الخجل الدامية، فغطت الحمرة وجهه، فجلس صامتا. تركت «نورا» خشبة المسرح، وأعلن أن «قمر» سوف تبدأ في عرض فننها الرفيع، وسوف تغني بعض الأغنيات بناء على طلب الجمهور.

ظهرت «قمر» على خشبة المسرح فصمت وكان على رأسه الطير، أو كأنه أصيب بالبكم، وشلت جميع أعضاء جسمه.. إنها ابنة عمته «شاذية» التي تم زواجها منذ عدة أشهر حين كانت في ملابس الزفاف بدت هكذا تماما، نفس تسريحة الشعر، أخذ يخفي نفسه وراء الرجل الجالس قدامه، كيلا تراه ابنة عمته الصغرى، وتسأله أمام هذا الجمهور الكبير: - جاويد! أنت هنا؟!

ومع بدء نغمات صوت الحجل في رجليها، ومع عزف القيثارة، ونقر الدف والطبل بدأ الخوف من زملائه يساوره، فقد لا يعلم هؤلاء أن من أمامهم ليست «قمر» لكنها ابنة عمه الصغرى.

تذكر أن صوت ابنة عمه رائع وجميل، وأنها دائما كانت تدندن، وهي مسترخية في غرفتها بالأغنية الشهيرة: «حل الربيع بنا فالحبيب قادم لبيتنا»..

كانت خجولة إلى أقصى درجة، لو ساورها شك في أن أحدا من الناس يستمع إلى دندنتها، ابتلعت الكلمات على الفور، كان أهل البيت يطلبون منها أن تغني لهم أحيانا في حفلاتهم الخاصة، فكان وجهها يحمر خجلا، وتخفي رأسها بين ركبتيهما، وتتحول إلى «كومة».

لا... لا.. لماذا تأتي ابنة عمته إلى المسرح؟! إن راتب زوجها معقول جدا، كيف تكون هذه قمر، ولا يوجد فرق ولو مثقال ذرة بينها وبين شاذية بنت عمته!! من يدري؟! لعل هذا من شيطنة أصحاب المسرح الذين يخيّلون للمشاهدين أن الراقصات هن أمهاتهم وأخواتهم، وحتى يبعد الشك عن نفسه سال أحد زملائه:

- حميد! هل تبدو لك قمر كابنة عمتك؟

- ما هذا التخريف؟! أجابه حميد بقرف، لم يبعد الشك عنه.

فسأل الجالس في المقعد التالي:

- يا أخي تبدو لك قمر مثل بنت عمتك؟

فلطمه الرجل على وجهه.

وهنا حدث هرج ومرج، وانقض الجميع على الرجل الذي لطمه، وبصعوبة كبيرة نجا من بين أيديهم.

تركت قمر خشبة المسرح، فشعر بالخوف، كان على يقين من أن أباه سيظهر على خشبة المسرح ويعلن:

- هيا! سيبدأ عرض الرقص.. أسرعوا.. تعالوا هنا..

لقد قالوا لي إن جميع النسوة اللاتي سيظهرن على المسرح من محترفات الغناء.

لكنه لم يصدق هذا، ونهض يريد أن يهرب ثانية، فأمسكوا بذراعه فبدأ يقول وقد صار بلا حول ولا قوة:

- أنتم جميعا تكذبون.. إنهن يبدون لكم مثل أمهاتكم وأخواتكم، لكنكم تخفون هذا الأمر عني.

وانخرط في البكاء كطفل صغير.